الإسلام يحارب القلق والقنوط

بقلم الأستاذ محمد عبد الرحمن

الناس من خوف الذل في ذل.. ومن خوف الفقر في فقر.. ومن خوف الوقائع في قلق.. ومن هول الأحداث في يأس وقنوط، وعالمنا الحاضر، على الرغم من بسطة المعارف والخير فيه، وعلى الرغم من وسائل الرفاهية، وقصر المسافات بين أرجائه، إلا أن إنسانه أكثر بني البشر قلقاً واضطراباً وقنوطاً منه في العصور الخوالي.

وإذا كان علماء النفس والإجتماع، قد وضعوا بعض المبادئ الفلسفية والعلوم الإجتماعية، وقدموا لذلك شروحاً مطولة عن القلق والخوف والكآبة، إلا أنهم لم يضعوا العلاج الناجع الذي يتحرر الإنسان معه من مسار الخوف وكابوس القلق وكآبة القنوط.

ونحن حينما نقول: إن الإسلام يحارب القلق والخوف والقنوط، لا نقول ذلك إلا من منطلق الإستناد إلى الحقيقة القرآنية التي ضمنها الله حلولا لمشاكل الإنسان، والتي لا يمكن لأحد من البشر أن يتحرر من سلطان القلق، إلا بصفاء الإيمان وروعة اليقين، ان الإسلام بنى حقيقة التوحيد على الثقة والطمأنينة، ودعا الإنسان أن يؤمن بقضاء الله وقدره، حتى يستقبل ألاحداث والوقائع والخير والشر بنفس راسخة وعقلية ثابتة.

والخوف والقلق يأتيان الإنسان إما عن طريق الخوف على الرزق، أو من منطلق الخوف على الحياة، او منطلق إستهانة الإنسان بنفسه، ونحن إذا تدبرنا آيات القرآن الكريم، نجد أن الله أفهم الإنسان قطع سلطان البشر عن الآجال والأرزاق، فإذا كان القلق يأتي الناس عن طريق الخوف على الرزق، فإن الله قال لهم: ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور ❖ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور﴾ تبارك: ٢٠-٢١ .

بهذا الإفهام، يبسط القرآن مشكلة الإنسان من مسألة الخوف من أعدائه،

ومشكلته من خوفه على رزقه، فالكفر غرور يلجأ إليه الإنسان الكافر وليس للغرور من عالم الحقيقة قوة.

فالإسلام يريد أن يجنب الإنسان عوامل القلق، ويكشف عنه الضيق حتى يتنفس في جو طليق، ويفهمنا بأن القلق على الرزق لا مبرر له، لأن الرزق والأجل مقدران، وليس لأحد من الخلق سلطان عليهما إلا بإذن الله، ومن هنا نجد هذا القسم الإلهي في القرآن بقول الله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون ❖ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ الذاريات: ٢٢-٢٣ .

فلماذا إذن هذا القلق وهذا الإضطراب طالما أن الرزق مقدر؟!

وهذا المفهوم لا يعني أبداً أن يقعد الناس عن طلب الرزق والجد في العمل، وهذا ظن الجهلة، ولكنه يريد الناس أن يسعوا في الحياة بنفوس واثقة لا قلق فيها ولا تردد، ونلاحظ هذا المفهوم من قول رسول الله ﷺ: «ليس من عمل يقرب من الجنة إلا أمرتكم به، ولا عمل يقرب من النار إلا نهيتكم عنه، فلا يستبطئن أحدكم رزقه، فإن جبريل القى في روعي، أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن إستبطأ أحدكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله فإن الله لا ينال فضله بمعصية».

بهذه الوصايا الحارة رفع الاسلام قدر التمسك به، وجعله ينقل أقدامه على الأرض مكيناً كريماً لا يقلق ولا يتردد، ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ بهذا المفهوم ينقل الإنسان خطواته الفسيحة في الحياة والأجواء، لا يتطير ولا يتشاءم ولا يقلق ولا يضطرب.

وإذا كانت النكبات تصيب الأمم الضعيفة بالدوار وخيبة الأمل، فانها في نظر الاسلام حياة للشعوب وتجربة قاسية تخرج معها بقوة الإرادة ومضاء العزيمة، ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ آل عمران: ١٧٣، يستقبلون الملمات بالثبات واللقاء لا بالخنوع والضعف، لأن النفع والضرر بيد الله.

نلاحظ أن الكثير يدور في فلك نفسه لا سواها، ونجد أن الكل جائع وهو متخم، ومريض وهو صحيح، وضعيف وهو مفتول العضلات، ومنافق وهو يدعي العزة!! شرقنا العربي والاسلامي يعاني البؤس والحرمان والقلق والخوف، وفيه نداء الله ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ آل عمران: ١٤٥ .

إن عناية الله بالكون قائمة، والشعور بالقلق والاضطراب حالة نفسية، لا تصدر إلا عن ضعف في اليقين وخطأ في التصور، ولا يمكننا أن نتغلب على القلق واليأس والقنوط، إلا بالإيمان الواثق بالله، لأن القضاء يصيب العزيز وله أجره، ويصيب الذليل وعليه وزره، فكن عزيزاً مطمئناً، ما دام لن يفلت من محتوم القضاء إنسان.